وكذلك كتب لهم موسى بن بغا فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفّر علينا أرزاقنا فإنا قد هلكنا بتأخيرها عنا ـ وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولي علينا أمير المؤمنين أحد إخوته فيكون واحد بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريدا أحد منا يكون علينا رأساً ولم يكتبوا للمهتدي جواباً شافياً. فأرسل إليهم المهتدي يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد أن أجيبت طلباتهم فتفرقوا ثم عادوا إلى الاجتماع.

كانت كل هذه الأحوال فرصاً لخلاص المهتدي من سيادة القواد الأتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم فأنفذ جنداً لمحاربة خارجي وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح فكتب المهتدي إلى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذي مع موسى إلى نفسه وأن يكون هو أمير الجيش وأن يقتل موسى ومفلحاً. فلما وصل الكتاب بايكباك ذهب إلى موسى وأراه إياه وقال له: إني لست أفرح بهذا وإنما هو تدبير علينا جميعاً وإذا فعل بك اليوم شيء فعل بي غداً مثله فما ترى؟ قال: أرى أن تصير إلى سامرا وتظهر له أنك في طاعته فإنه يطمئن إليك ثم تدبر في قتله فقدر بايكباك فدخل على المهتدي فأظهر المهتدي الغضب من مخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحاً فاعتذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدي عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدي ذلك استشار صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل ما فعله المنصور بأبي مسلم فأمر المهتدي بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والأتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم إلا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدي برميها. فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فحاربتهم الفراغنة والمغاربة والأشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الأتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدي وفي عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته فلما التحم القوم مال الأتراك الذين مع المهتدي إلى إخوانهم وبقي في المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الأتراك حملة شديدة فمروا منهزمين معهم المهتدي والسيف في يده مشهور وهو يقول: يا معشر الناس انصروا خليفتكم حتى صار إلى دار محمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الأتراك خبره فجاءوا إليه وقبضوا عليه وحملوه إلى دار، مهاناً وذلك في (١٤ رجب سنة ٢٥٦) ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٥٦).

١٥ ـ المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد (سنة ٢٣١) وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب

(سنة ٢٥٦) (١٩ يونية ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفي ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته (٢٣ سنة وثلاثة أيام) وكان يعاصره في الأندلس محمد بن عبد الرحمان المتوفى (سنة ٢٧٣) ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥) ثم عبد اللَّه بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠) وفي إفريقية وصقلية من الأغالبة محمد بن أحمد بن الأغلب (المتوفى سنة ٢٦١) ثم أخوه إبراهيم (المتوفى سنة ٢٨٩).

وفي اليمن من آل زياد بزبيد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم (٢٤٥ ـ ٢٨٩).

وفي اليمن من آل الحوالي بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ ـ ٢٧٩).

وفي خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد اللَّه بن طاهر (٢٤٨ ـ ٢٥٩) وهو آخر الأمراء الطاهرية بخراسان.

ويعاصره في طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ ـ ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ ـ ٢٧٩).

ويعاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلي (٨٦٧ ـ ٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ ـ ٩١١).

ويعاصره في فرنسا شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧) ثم لويز الثاني الملقب بالتمتام إلى (سنة ٨٧٩) ثم لويز الثالث إلى (سنة ٨٨٢) ثم كارلومان إلى (سنة ٨٨٤) ثم شارل الملقب بالغليظ إلى سنة ٨٨٧ وكان إمبراطور ألمانيا أيضاً ثم أودون الذي (توفي سنة ٨٩٨).

الأحوال الداخلية:

كانت نتيجة طلبات الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه في صفر (سنة ٢٥٧) الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه في رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. وفي ربيع الأول (سنة ٢٥٨) عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلي لأبي أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبي أحمد هي العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وإن كانت أحوال المعتمد نفسه ساءت لأنه لم يترك له شيء من التصرف حتى أنه احتاج في بعض الأحيان إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شيء في يديه

إليــه تحمـــل الأمـــوال طـــرا ويمنـــع بعـــض مـــا يجبـــى إليـــه

كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلاً صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام في عهد المعتمد وسنقتصها بعد أن نذكر إجمال الوزارة لعهده.

كان الذي يولي الوزراء هو أبو أحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه.

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقدمنا ذكره إذ كان وزيراً للمتوكل. ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا إلا إياه فرضي بعد ذلك الإباء وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والأعمال ضابطاً للأموال ولم يزل وزيراً إلى (سنة ٢٦٣) حيث مات بسقوطه عن دابته في الميدان وصلى عليه أبو أحمد بن المتوكل ومشى في جنازته.

استوزر بعده الحسن بن مخلد. وكان كاتباً لأبي أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وأصله من دير قنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا: كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل في الغد عن أي شيء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور. ولم يمكث في وزارة المعتمد كثيراً فإن مدته لا تزيد على (١٦) يوماً من (١١ ذي القعدة سنة ٢٦٣ إلى ٢٧ منه) وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فإنه لم يكن على وفاق معه فهرب إلى بغداد عقب حضوره.

ولي الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذي كان وزيراً للمهتدي وقد قدمنا صفته وبيته وولي عبد الله بن سليمان كتابة أبي أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا.

وفي سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وإبراهيم وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذي القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد إلى الجانب الغربي فعسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلف الرسل بينهما. ولما كان بعد أيام خلون من ذي الحجة صار المعتمد إلى حراقة في دجلة وصار إليه أخوه أبو أحمد في زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد.

وفي ثامن من ذي الحجة عبر جند أبي أحمد إلى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن

وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب في قبض أموالهما وأموال أسبابهما.

ولم يدم رضا أبي أحمد طويلاً عن سليمان بن وهب فإنه غضب عليه (سنة ٢٦٥) وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسبابهم في دار أبي أحمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على (٩٠٠٠٠٠) دينار وصيرا في موضع يصل إليهما من أحبا.

وقد مات سليمان بن وهب في حبس أبي أحمد (سنة ٢٧٢).

ولي الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر إسماعيل بن بلبل وهو عربي ينتسب إلى شيبان ولكن نسبه كان مغموراً ومن مساورة الظنون للمتهم أن ابن الرومي الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها:

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان … فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم … كلا لعمري ولكن منه شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا … كما برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله قلت لهم كلاماً ظن أن ابن الرومي قد هجاه بذلك باطناً وأنه عرض بأنه دعي واشتبه على أبي الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومي إلى إفهامه معنى الشعر فلم يقبل في ذلك قول قائل وقيل له: يا سبحان الله انظر إلى البيت الثاني وحسن معناه فإنه معنى مخترع ما مدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بأن ابن الرومي هجاه فكان ذلك داعياً إلى أن سل ابن الرومي عليه لسانه وهجاه فأفحش في هجائه ومما هجاه به قوله:

مهلاً أبا الصقر فكم طائر … خر صريعاً بعد تحليق

زوجت نعمى لم تكن كفؤها … فصانها الله بتطليق

لا قدست نعمى تسربلتها … كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريماً مطعاماً متجملاً وبلغ في الوزارة مبلغاً عظيماً وجمع له السيف والقلم فنظر في أمر العساكر أيضاً وسمي الوزير الشكور.

وفي (سنة ٣٧٨) قبض على أبي الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك على

عبيد اللّه بن سليمان بن وهب وولي الوزارة وكان من كبار الوزراء مشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب.

وممن خدموا في كتابه الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه (سنة ٢٦٥)واستعمله الموفق في قواد الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمي ذا الوزارتين (سنة ٢٧٠) وقبض عليه الموفق (سنة ٢٧٢) وعلى ابنيه أبي عيسى وأبي صالح وعلى أخيه عبدون.

وعلى الجملة فإن أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جداً وقد استوزر بعض من سمعنا من الوزراء أكثر من مرة.

العلويون:

في عهد المعتمد على اللّه توفي أبو محمد الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن محمد زين العابدين بن الحسين بن علي وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية والذين في عمود نسبه إلى علي بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن علي. وكانت وفاة الحسن العسكري (سنة ٢٦٠) بسامرا ودفن بها بجانب أبيه علي الهادي ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافاً كثيراً وجمهورهم على أن الإمام بعده ابنه محمد العسكري وهو الثاني عشر من أئمتهم قالوا: إنه دخل سرداباً في دار أبيه بسامرا وأمه تنظر إليه فلم يخرج إليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ويسمونه المنتظر والقائم والمهدي والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب.

ويقول غيرهم: إن الحسن العسكري لم يعقب وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي.

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الأولاد منهم عبد اللّه الأفطح ومحمد وموسى وإسماعيل.

فقال قوم: إن الإمامة بعد جعفر لابنه عبد اللّه الأفطح لأنه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم أن جعفراً نص على إمامته بعده ومع ذلك فإنه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوماً ولم يعقب ولداً ذكراً.

وقال قوم: إن الإمامة من بعده لابنه محمداً ورووا عنه أنه قال: إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم منهم: الاثنا عشرية الذين ذكرناهم إن الإمامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه أنه

قال : سابعكم قائمكم، واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الإمامة في أولاده كما بينا .

ومنهم من قال إن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل نصاً عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل إنه عاش بعد أبيه ومن قائل إنه مات في حياة أبيه . وفائدة النص بقاء الإمامة في أولاده دون غيره وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الإمامية الاثنا عشرية في المبدأ العام للتشيع الإمامي: وهو أنه لا بد للناس من إمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول اللّه ﷺ وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأي ويتفقون معهم على إمامة الستة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ومنه يبتدىء الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل .

ولما كان الإمام هو حجة اللّه على خلقه وأنه لا بد من وجوده ليؤدي ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره وحينئذ لا بد له من نائب يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه، وساقوا الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من بعده وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثنا عشر وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيراً منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم إلى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهي نحلة تنسب إلى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الإسلامي بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون في السنة الأولى من ملك ططوس بن أنطونيانوس الرومي وجاء بعد ابن ديصان «ماني» وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة في أصولها فالمرقيونية يقولون بوجود أصلين قديمين هما النور والظلمة وقالوا إن ههنا كوناً ثالثاً هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للأشياء بأمره وقدرته إلا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث وأن الصنعة بينة فيه لا يشكون في ذلك وزعموا أن من جانب الزهومات والمكر وصلى للّه دهره وصام أبداً أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتنزيه اللّه عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلو من ضرر واللّه متنزه عنه .

أما الديصانية الذين جاءوا على أثرهم فتقول أيضاً بالأصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة: إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ونتنها فشابكها بغير اختيار وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الدياصنة أن الظلمة أصل

النور وذكر أن النور حي حساس عالم وأن الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة في مذهبهم.

والمانية يقولون أيضاً بالأصلين النور والظلمة وهما مبدأ للعالم فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الإله وزعم أنه أزلي بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض ـ والأصل الثاني الظلمة وله كلام طويل في بدء كون الإنسان واشتباكه مع إبليس وغلبة الثاني الأول ثم خلاص الثاني من هذه الشباك وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها سن لهم عبادات من الصلاة والصوم وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد ماني أئمة يدينون بطاعتهم قبل الإسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم ماني ومن بعده من الأئمة. وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب ماني وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدي وابنه الهادي فقتل منهم عدداً كبيراً. قال ابن النديم في الفهرس: قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل في الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد اللّه كاتب المهدي زنديقاً واعترف بذلك فقتله. قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم وكذب في ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقاً. ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه فقطعه المتوكلون فقال له المأمون: أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون: أجل.

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية إن عبد اللّه بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبد اللّه أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضي أين أحب في أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات في البلدان الشاسعة وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران في موضع يعرف بسباط أبي نوح فبنيت إحداهما مسجداً والأخرى تمت على خرابها وصار إلى البصرة فنزل قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب فكبس هناك فهرب إلى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد اللّه المهدي رأس الدولة الفاطمية من نسل هذا الرجل وأن عبيد اللّه هو سعيد بن الحسين بن عبد اللّه بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيد اللّه لما ورد مصر.

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبني العباس الذين غصوا بمكان

الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل. والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول إلى هدم دولة بني العباس إلا أنها شيبت بشيء من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساساً لها حتى يفجأ المدعو بالغرض السياسي لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك في ظلمات حتى لا تتميز حقيقتها.

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية إحداهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهي موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ (١٦٠ سنة) موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها (الثانية) قوة ذات فوضى وجون ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهي القرامطة وهذه أولاهما في الظهور فإنها ظهرت بوادر شرها في عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها. وسنتكلم الآن عن القرامطة.

ظهر في أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت وكان يزداد في أعين الناس نبلاً بما يظهر من الزهد ثم مرض وكان في القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيماً عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

كان للهيصم في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه في طلبه فأخذ وجيء به إليه فحبسه واشتغل بشربه. رقت إحدى جواري الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة في الناس فافتتنوا به وقالوا: رفع ثم ظهر في ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم في أعينهم. ومع ذلك فإنه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وهو كرمية ثم خفف فقيل قرمط.

ثم فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالأمة الإسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره في مواضعه إن شاء الله.

دعي آل علي:

لم يكف بني العباس ما أصاب دولتهم من آل علي بن أبي طالب الذي نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعفوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعي في آل علي لا يعرف الطالبيون له نسباً ولا رحماً يدلي بدلوه في الدولة لينال منها حظاً لنفسه ذلك هو علوي البصرة أو الخبيث صاحب الزنج زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين (سنة ٢٤٩) فادعى أنه عباسي ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلى حي من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبي وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه. نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص إلى البصرة فنزل بها في بني ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة (سنة ٢٥٤) وعاملها محمد بن رجاء الحضاري فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه منهم ابن الدعي.

مضى الدعي مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولاً يستميل إليه الناس سراً حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص إليها في رمضان (سنة ٢٢٥) ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشي وهناك خطرت له فكرة غريبة وهي الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم؟ فأخذ منهم غلاماً اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائداً وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرئسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم. حذر الناس على غلماتهم وكان هناك نحو (١٥٠٠٠) غلام.

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من (سنة ٢٥٥) وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وأن اللّٰه قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأموال ثم حلف لهم على ذلك. وشرع فقود قواده وقال لهم: كل من أتى برجل فهو مضموم إليه. استمر يعيث في تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت إليه

جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوي أمره جداً بتلك الواقعة وحل الرعب في قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدي بالله. أقام الدعي بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبي قرة ثم تحول منها إلى الجانب الغربي من نهر أبي خصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة في دجلة وكانت شيئاً كثيراً.

وفي رجب (سنة ٢٥٦) أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهل عبادان خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكراً إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر إبراهيم ابن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعباً. أرسل السلطان إلى الدعي جنوداً فكان يصيبها أبداً الفشل.

وفي شوال (سنة ٢٥٨) أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها.

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف إليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسي من ذلك قوة روح. فعبأ جنداً كثير العدد ثم العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعي وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواماً. وفي آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعي وكان ذلك في أواخر (سنة ٢٧٠) وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعي وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التي اختطها الموفق هناك من جميع النواحي وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمناً وإيناساً.

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع من رمضان (سنة ٢٥٥) وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر (سنة ٢٧٠) فكانت أيامه من لدن أن خرج إلى اليوم الذي قتل فيه (١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام). وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان (سنة ٢٥٦) وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال (سنة ٢٥٧).

ولم يكن يدري إلا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم كان الأمر ينتقل من أيدي الأتراك إلى أيدي الزنوج فتقع الأمة في الشر العظيم والوباء

الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولاً فانتصار العباسيين عليهم خلاص للأمة من شر مستطير.

الاضطراب في المشرق:

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفاة لما عهد به إليهم موثوقاً بهم في ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية إلا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشره إلى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معاكسيها إلا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع.

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض.

الأولى: القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل.

الثانية: القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو. كان هذان الرجلان يشتغلان في حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلاً من أهالي سجستان وكان مشهوراً بالتطوع في قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكناني فأحبهما وحظي بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه. ولما توفي صالح ولي مكانه في رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائداً لعسكره. وكان درهم غير ضابط لأموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهماً وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفراً عظيماً وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما إليها. ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له. وكان ملكه هراة وبوشنج (سنة ٢٥٣) وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر.

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميراً بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث إليه بهدية سنية منها مسجد فضه مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنساناً وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى إخراج علي بن الحسين المتغلب على بلاد فارس. ثم شخص على أثر كتابه للمعتز إلى كرمان فنزل بم وهي الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل إلى عمل فارس فخندق علي بن الحسين على

نفسه بشيراز وذلك في (١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥) وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرني بتسليم العمل لأنصرف فلم يلتفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة في جمادى الأولى (سنة ٢٥٥) انهزم فيها جند شيراز وأسر علي بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافراً وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز، ثم دعا بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان.

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فإن كوراً عظيمة أذعنت لسلطانه وفي (سنة ٢٥٩) في عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقى بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذي كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين إذ ولاه خراسان وبلاد المشرق.

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب إلى سامرا وفداً معهم كتاب يذكر فيه ما تناهى إليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك سار إليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار إليه أهلها فدفعوها إليه فدخلها.

كان المدبر للدولة في ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل ما فعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع إلى عمله فإنه إن فعل ذلك كان من الأولياء وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين. فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير في نفس يعقوب ولا في مركزه القوي لأن المسألة مسألة تنازع في الحياة ولا بقاء للحياة إلا بالقوة.

وفي (سنة ٢٦٠) كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافراً وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار إلى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الأمطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه إلا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير إلى الأمام انصرف بجنده وقد فقد منه في هذه الواقعة نحو أربعين ألفاً وتقرب بما فعل إلى سامرا فبعث يخبر به وذكر أنه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين.

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتاباً يعلمهم فيه أن السلطان لم

يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لإنكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر. وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التي لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيراً بإزاء القوة فعادوا إلى الحيلة خوفاً من أن ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك إقامة له مقام آل طاهر.

لما نال يعقوب ما طلب ازداد طمعاً وجرأة فأرسل يقول إنه لا يرضيه ما كتب به إليه دون أن يصير إلى باب السلطان ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلي على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمره أنه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه إلى حربه ولا سيما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا إلى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذي وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بني كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولاً لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فإن كثيراً من الجند اليعقوبي كرهوا القتال إذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجهاً لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فإنه فارق موضعه على تعبئة ومضى. تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه مرتبته وقرأ على الناس كتاب يذكر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقاً محارباً وكان هذا الكتاب مؤرخاً بيوم (١١ رجب سنة ٢٦٢).

رجع المعتمد إلى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد إليه عمله فخلع عليه في الرصافة، أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالاً من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعي صاحب الزنج الذي لم يكن انتهى أمره بعد.

وفي (سنة ٢٦٥) توفي يعقوب بن الليث بالأهواز.

كان هذا الرجل عصامياً نشأ في صناعة الصفر ثم ما زال يهم بالمعالي فتنقاد له. قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليه في تدبيره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهي قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد وهو في جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن أنه يلقى حرباً وكان يرى أن كتبه التي يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة. وكانت مدته (١٨ سنة).

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيراً من أخيه في التدبير وإحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن

طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولاً باسم عمرو بن الليث لتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس فيتفقدها ويأمر بوزن (٣٠٠) درهم باسم عمرو بن الليث فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقلبها ويقول الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها في خفه تكون لمن يخلع خفه. ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل بإحضار شيء حرموه رزقه. وفوق ذلك كان يرضي الخليفة وبطانته بما كان يرسله من الأموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة والياً على ما كان يلي أخوه ووجهت إليه بذلك الخلع مع العهد والعقد.

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة (سنة ٢٧٢) لما كان يبدو له من طموحه إلى ما طمح إليه أخوه فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضي عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال ولم يزل عمرو في حروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيراً لما كان بيد السامانيين من بلاد ما وراء النهر فولاه الخليفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجيء.

السامانيون:

تنسب الأسرة السامانية إلى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهي أسرة عريقة المجد في الأمة الفارسية. كان في عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لذوي البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد في سمرقند وأحمد بن أسد في فرغانة ويحيى بن أسد في الشاش وأشروسنة وإلياس بن أسد في هراة. وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضي السيرة لا يأخذ رشوة ولا أحد من أصحابه. ولما توفي استخلف ابنه نصراً على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقي عاملاً بها إلى آخر أيام الطاهرية. وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصراً فولاه بخارى (سنة ٢٦١) وكان بين هذين الأخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء حتى إنه في (سنة ٢٧٥) تحارب نصر وإسماعيل فقهر نصر وحمل إلى أخيه إسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى.

وإسماعيل هذا هو الذي على يده انتهى عز عمرو بن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم (١٧٠ سنة وستة أشهر) ثم

انتهت على أيدي آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم:

١	ـ نصر بن أحمد بن سامان	٢٦١ ـ ٢٧٩
٢	ـ إسماعيل بن أحمد	٢٧٩ ـ ٢٩٥
٣	ـ أحمد بن إسماعيل	٢٩٥ ـ ٣٠١
٤	ـ نصر بن أحمد	٣٠١ ـ ٣٣١
٥	ـ نوح بن نصر	٣٣١ ـ ٣٤٣
٦	ـ عبد الملك بن نوح	٣٤٣ ـ ٣٥٠
٧	ـ منصور بن نوح	٣٥٠ ـ ٣٦٦
٨	ـ نوح بن منصور	٣٦٦ ـ ٣٨٧
٩	ـ منصور بن نوح	٣٨٧ ـ ٣٨٩
١٠	ـ عبد الملك بن نوح	٣٨٩ ـ ٣٨٩

مما تقدم يفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلاً وإن كان يدعى لهم ببعضها أسماء.

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية والعلوية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبني العباس بطاعة.

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بني العباس برقة ومصر وسور وهي دولة أحمد بن طولون.

أحمد بن طولون:

كان طولون مملوكاً تركياً أهداه نوح بن أسد الساماني إلى المأمون (سنة ٢٠٠) فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا (سنة ٢٢٠) فربي في حلبة أولئك الجنود وأفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفي أبوه طولون فكان بعده في ضمن جنود بايكباك الذي تقدم ذكره.

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهو الذي يختار أميرها ففي (سنة ٢٥٤) اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب بايكباك.

لما توفي المعتز (سنة ٢٥٥) وتولى المهتدي وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهراً لأحمد بن طولون فإن أحمد كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولاً ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور (سنة ٢٥٨) فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر.

وفي (سنة ٢٦٢) حصل بينه وبين أبي أحمد الموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد إلى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة فسير إليه الموفق جيشاً يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام فيها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الأموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق وكفي ابن طولون شره وفي (سنة ٢٦٣) ولى المعتمد أحمد بن طولون طرطوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة.

وفي (سنة ٢٦٤) دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذي كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعاً عظيماً حتى كانت حدود مملكته تنتهي إلى نهر الفرات وبذلك تم التغلب والانفراد عن بني العباس من أقاصي الغرب إلى نهر الفرات فضاقت مملكة بني العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الري والأهواز.

وكان الموفق في ذلك الوقت مشغولاً بحرب الدعي صاحب الزنج فكان ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوي أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخلافة إلا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية إلى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذي أرسل إليه الموفق أن يبذل جهده في منع المعتمد من المسير إلى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل إلى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية إلى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق إلى المعتمد يبلغه ففصل مكرهاً لأن هواه كان مع ابن طولون.

وفي (سنة ٢٧٠) توفي أحمد بن طولون فخلفه في مصر والشام والثغور الشامية ابنه

خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون إلى (سنة ٢٩٢) وقد ولي من هذا البيت خمسة أمراء وهم:

١ ـ أحمد بن طولون .... ٢٥٤ ـ ٢٧٠
٢ ـ خمارويه بن أحمد .... ٢٧٠ ـ ٢٨٢
٣ ـ أبو العساكر جيش بن خمارويه .... ٢٨٢ ـ ٢٨٣
٤ ـ هارون بن خمارويه .... ٢٨٣ ـ ٢٩٢
٥ ـ شيبان بن أحمد بن طولون .... ٢٩٢ ـ ٢٩٢

الحوادث الخارجية:

ترتب على الاضطراب الذي قصصنا حديثه في عهد المعتمد أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفاً حتى أنهم أخذوا (سنة ٢٦٣) حصن لؤلؤة الذي كان شجى في حلوقهم وغلبوا كثيراً من الجيوش ولم تتحسن الأحوال قليلاً إلا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد إليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة (سنة ٢٧٠).

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيراً من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل.

ولاية العهد:

كان أبو أحمد الموفق ولي العهد بعد المعتمد وكانت إليه أمور الخلافة فعلاً فلما توفي (سنة ٢٧٨) جعل ولي العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبي أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة في الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدماً.

صفات المعتمد:

لم يكن للمعتمد نفوذ في إدارة البلاد ولا شيء من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطاً بأخيه أبي أحمد وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي لا هم له إلا ذلك وله أحاديث في الغناء والرقص والندامى وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات.

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم أتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩).

١٦ ـ المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار و ان عضداً لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولي العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض بن المعتمد (سنة ٢٧٩) وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المعتمد على اللّٰه لإحدى عشرة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد اللّٰه بن محمد الذي توفي (سنة ٣٠٠).

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن فيها بقرب الانتهاء.

ويعاصره في إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي توفي (سنة ٢٨٩).

وفي مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى (سنة ٢٨٢) ثم جيش ابن خمارويه المتوفى (سنة ٢٣٢) ثم هارون بن خمارويه المتوفى (سنة ٢٩٢).

وفي زبيد من آل زياد إبراهيم بن محمد بن عبد اللّٰه بن زياد المتوفي (سنة ٢٨٩).

وفي صنعاء من آل يعفر عبد القادر أحمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٧٩) ثم إبراهيم ابن محمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٨٥) ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع (سنة ٢٨٨) ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة.

وفي طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوي المقتول (سنة ٢٨٧).

وفي خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذي أسر (سنة ٢٨٧).

وفي بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى (سنة ٩١١).

وفي فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى (سنة ٨٩٨) ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى (سنة ٩٢٣).[١]

وزراء الدولة:

أول وزراء المعتضد عبيد اللّٰه بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات (سنة ٢٨٨) فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد اللّٰه ومات وهو وزيره.